قصة جديدة ولكنها قديمة

الحيوان في عصر الآلة

خطبة رجل من فجر التاريخ

الاختراع من أنسفات التي يتميّز بها هذا العصر . ولكن العصر الذي اخترعت فيه الكتابة والعجلات والإبر ، واستنبط السفر والتسخ والنقد كان من اعظم العصور اثراً في التاريخ ، لان تلك المخترعات والمستنبطات وغيرها كانت اوثق صلة بأسرار التحضّر واركان العمران من المسابيح والسيارات ومثاقب الحديد ومجمّدات الشعور ومطربات الجلود ومذيعات الانباء

خذ مثلاً على ذلك الرجل الذي «اخترع» البقرة . فقد يصعب علينا الآن ان نتصور بيتاً ليس فيه زبدية لبن حليب . ولكن في العصور المتغلغلة في جوف القدم ، كان اصعب على الانسان ان يتصوّر بيتاً فيه لبن حليب ، دع عنك الزجاجة . فقد كان اسهل على الرجل ان يتقدم الى زوجه باقة من الزنابق على ان يأتيها بوعاء من اللبن . وليس ذلك لقلّة اللبن ولكن لتعذّر الحصول عليه . فقد كان هناك خروف طائفة من الحيوانات ولكنها كانت برية شرسة فلا يحاول رجل ان ينتزع منها لبنها الا وبأب بأدى عندها ولد عبقري — عبقري جرّب التجارب بالحيوانات كما نجربها نحن بالمواد الكيمائية . وفي ذات مساء طرأ على فكره خاطر عجيب قوامهُ الحصول على اللبن الذي يطلبهُ عند بابه كلّ صباح

كان تحقيق هذا الخاطر من اعسر الامور . أيّ الحيوانات اصلح ما يكون لهذا العمل ؟ ففي بعض نواحي الارض كان بعض الناس قد جرّب الحيوان المعروف بالكنلان الذهبي . وهو حيوان قبيح الخلقة ، كانوا يحفظونهُ في الكهوف ويحلبونهُ عند الامكان . ولو انهم نجحوا في تجربتهم هذه لحلّ الكنلان في الراجح محل البقر في موجوداتنا وصور معموريتنا وقصائد شعرائنا

غير ان الكنلان كان لا يصلح لهذا . فهو يصاب في الصيف بامراض جلدية ، ويضرّ في الليل ، وفي لبنهِ طعم كريه كأن فيهِ اثراً من السمك . ولو انحصر الاعتراض عليهِ في الوجوه المتقدمة لهان الامر . ولكن الكنلان كان غير مزواج بل كان يكتفي بزوج واحدة . والتقيّد بزوج واحدة في الحيوانات الزراعية ، ليس في مصلحة الفلاح . فلما تبيّن الاقدمون ان كلّ كنلانة لا بدّ لها من زوج خاص بها ، انصرفوا عن محاولة تربية هذه الحيوانات للفوز باللبن الذي تدرّهُ انثاها

عند ذلك التفت العبقري الى حيوان ثقيل ، لا يبدو على ظاهره انهُ اصلح لهذا الغرض من الكنلان المنبوذ . كان شرساً ، صلب القرون ، يجفل لأتفه الاسباب ، بعيداً في شكلهِ وطبائعهِ

عن البقرة الكاملة الآن . ليست تلك الخطة من خطط المستحيلات . ولكن ذلك الشيء الذي نراه فيه بين الحين والحين يسمح ان يكون « الآلة » التي يقذفنا الحيوان بالتين الى عالم لا صباح

عزى بعض الناس رؤوسهم خيالياً لا يقيم لواقع وزناً . ليت يستطيع ان يصير سيد الحيوان الشرس الشرير ؟ ان البعض من التبر في الارض ، معقول لان التبر لا ينتقل من مكان الى مكان . اما صيد هذا الحيوان حيًّا ثم تأنيسه واستدراره لبنه ، فعمل من وراء القدرة البشرية . انهُ يفرس ويطحن ولا يستقر انهُ قرار . ومع ذلك فان اعتمادنا اليوم في اللبن الذي نشربهُ سخاراً وكباراً ، وناكلهُ جبناً مختلف الالوان ، وندخلهُ في صناعات لا حصر لها ، انما يستدرُّ من البقرة التي « اخترعها » ذلك العبقري

وما ليث مفكّر آخر حتى « اخترع » الدجاجة . ذلك انهُ لم يكتفِ بالبحث عن البيض السمار في الحراج ، فاختار طائفة من الطير الحقير الجبان ، واقدمهُ بالتربية والعناية بوجر الطراح وسكنى القنان . و « اخترع » غيرهُ في آسيا الجمل للنقل وآخر الحصان للعدو والاحتمال السريع

فاين بين هذه المخترعات ومخترعاتنا نحن ! ان مخترعاتنا ولا ريب زادت في رفاهنا ، ولكنها في الوقت نفسهِ زادت في متاعبنا . ولو انهُ اتيح لأحد هؤلاء المخترعين القدامى ، ان يزور الارض الآن لأخذ بالعجائب التي اخترعنا . ولأخذ كذلك بالجهد الذي التزم علينا الآن . فاذا يقلى قليلاً من هذا المشهد الذي يدهشهُ ويحيّره للغاية وقال : انني لا أستطيع ان افهم كيف تسخرون لهذا واياكم ملكة الحيوان . فلماذا لا تختارون منها حيوانات متنوعة ، تثيرونها على ما بدا لكم جانب من العمل المحتوم عليكم ؟ انني لا أفهم لماذا تحصرون هذه الاعمال في الرجال . ومن الحيوان اصناف كثيرة يمكن تسريحها ان تقوم بها ؟

فتأنس قليلاً الى ملاحظة الرجل . ويأنس هو منك هذا الايناس فيمضي في قوله :

« ... ولست ادري ... بل لعلنا كنا في العصور السابقة ابرع منكم بما وسع حيلتنا . خذ مثلاً على ذلك الضأن . فانها بعد اختراعنا لها شبّت عن الطوق في الطبائع المطلوبة منها وكثرة تناسلها وزيادة ما تتطايبهُ من الخدمة منا . ولكننا لم نلبث لها ، ولا رضينا بها اسياداً ونحن سيداً ، « فاخترعنا » كلب الرعاة ليرعاها ويحرسها

« ولكني لا أفهمكم تدّعون انكم احرار من قيود التحرُّب لفكرة سابقة وتضحكون من اسلافكم الذين ينصرون ان يقبلوا البخار سيّراً لعربات الانتقال بدلاً من الخيل . فأضحك من دعواكم هذه . لانهُ اذا جاء رجل وقال لكم لماذا لا تستعملون الدبة بدلاً من الرجال في تعدين مناجمكم لحكتم منهُ وهزأتم بما يقول . ولكن اذا كان لنا في تلك العصور القديمة ان نأخذ الخيل البرية الشرسة ، ونروّضها حتى تتخلّى عن بعض طبائعها الشرسة كالرفس والعضّ والنفار فتحولها الى حيوانات مطواعة تحمل اعباءنا وتطيع اشارتنا — اذا كان لنا ذلك في العصور القديمة فاحرِ بكم ان تحوّلوا اللهب الى حيوان يعدّن الفحم من دون صعوبة كبيرة

« اني أعلم بانكم لا تستطيعون ان تستعملوه في التمدين كما هو الآن . وانما انظروا اليه نظركم الى السلسلة في يد الخراف . فهو حيوان في عقله ذكاء ، وفي عضلاته قوة . ويستطيع ان يستعمل مخالبه كما يستعمل الانسان يديه . انكم لتستطيعون ان تخلقوا منه بالتأكيد شيئاً ابرع في استعمال يديه من الديب الحاضر . وهذا اكثر مما وجدناه في الحيوان الذي خلقنا منه البقرة في بعيد العهد

« واذا يظهر ان آخر ما تتجه اليه انظاركم هو استعمال الحيوان . فاذا وجد احدكم نوعاً جديداً من الحيوان عاد بنموذج منه الى حديقة من حدائق الحيوانات ، او جاء بجلده الى بيته او احدى المتحفات . ولو انكم جربتم في استعمال المعادن على هذه الخطة ، لما كنتم بتعليقها على الجدران او عرضها في المتحفات او تصويرها بالفوتغراف

« وانما يحيرني عنايتكم الشديدة بالجوامد ، وانصرافكم عن الاحياء

« للمخترعين ثلاثة ميادين — ميدان الجوامد — وميدان النبات — وميدان الحيوان . فلماذا لا « تخترعون » حيوانات جديدة . فأنتم بحاجة كبيرة الى ما تستطيعون اختراعه في هذا الميدان الثالث من ميادين الاختراع ؟

« بل مما يزيد حيرتي ، رضاكم عند القيام بالعمل المضني ، من دون ان يساعدكم احد لا الغائه او الاستغناء عنه ، بالقائه على عواتق الحيوانات التي تخترع لهذا الغرض خاصة . ان مخترعيكم يتعهدون بالغاء العمل ، او تقليله . فما هو السبيل الذي يسلكونه الى تحقيق غرضهم ؟ يخترعون آلات جديدة ، تدير من تلقاء نفسها الآلات القديمة ، والآلات الجديدة يسهل في ادارتها الى الرجال او النساء . فلماذا يجب عليهم ان يخترعوا آلات لا يديرها الا الناس ؟ لماذا لا يحاولون ان يخترعوا آلات يمكن ان تديرها الحيوانات ؟ او لماذا لا تحاولون ان تخترعوا حيوانات جديدة تصلح لادارة آلاتكم ؟ ولو انكم عشتم في العصر الذي استنبطت فيه العجلات ، لما خطر على بالكم — بناء على تصرفكم الآن — ان تستعملوا الخيل لجر العربات ، بل لجررتموها بأنفسكم ، او لظللتم تجرونها قروناً حتى يستنبط البخار فيعفيكم من جرها على الاطلاق . ولكننا نحن اخترعنا الجياد قبل العربة ، وكذلك البغال والثيران والحمير . فجرلنا العربة ذات العجلات نعمة للناس ، لا لعنة . ان مئات من انواع الحيوان تصلح للاستعمال في آلاتكم ، بالتمرين والترويض والانتخاب الشاملي . ان تطبيع الجياد البرية يستغرق بضعة أسابيع ، ولكن تطبيع الأطفال يستغرق سنين طوالاً . وليس ثمة اي خوف ، من ان ينقلب الحيوان المطبع فلا يقوم بالعمل الذي تعوده وتمرن عليه . ولابد ان يجيء يوم يهزأ فيه حفدتكم من اسرافكم في اطلاق الحرية للحيوانات القوية الصغيرة ، تنفق وقتها جزافاً في الخراج والبطائح والسهول ، وانتم تعملون حتى كدتم ان تأتوا على نفوسكم بالعمل المضجر المضني ثم تتضورون من مصيركم » !

كذلك ختم القادم من فجر التاريخ حديثه في ابناء العصر الحاضر

[illegible] بافتراح ذلك الخطيب البليغ ، ورأيا انقلاباً كبيراً قد أتى على مناحيها ومصالحها . بل رأينا [illegible] هذا انقلاباً عظيماً في حروبنا . فالحروب اول ما تتأثر بالمخترعات الجديدة . فاذا تعلم اساطين الحيوانات في إعداد الجيوش ، فقدت الحرب ، بعض فظائعها التي يأباها الانسان . كان امر الهند في العهد السابق للانكليز هناك يستعملون الفيلة في الحرب . فلماذا لا تنشىء فرقاً من الخنزير ، تتخصص في الهجوم على الخنادق ، واسراباً من الفيران لالقاء القنابل من الجو . فالمسألة مسألة تمرين ، ونحن لانستطيع ان نحكم الآن بعد ان نجرب !

اوجد مثلاً آخر . فقد ألّف العالم الاقتصادي البلجيكي — لاميليري La Sillerie — كتاباً قال فيه : ان ملايين من الأفدنة الصالحة لرعي الماشية في الاقطار الباردة الشمالية ، لا تصلح لذلك من الوجهة الاقتصادية ، لأن الأبقار مثلاً تحتاج الى حظائر مدفأة ، وان ما يقتضيه بناء هذه الحظائر وتدفئتها من النفقة ، يجعل العمل من الناحية المالية عملاً خاسراً . ولكن هذا القول لم يلق بالهُ الى طريقة عمد اليها الانسان في فجر التاريخ . ذلك انهُ ليس من المحتوم علينا ان نربي الابقار في المناطق الشمالية الباردة لان الابقار من اصل استوائي ويتعذّر عليها تحمل البرد الشديد في تلك الاصقاع . ولكن لماذا لا نبحث عن نوع آخر من الماشية يستطيع ان يتحمّل البرد . ولعلّ افضل هذه الحيوانات التي تصلح لمثل هذا الغرض هو ثور المسك . لا ريب في ان ثروة طائلة تدرّ على الرجل او الجماعة التي تستطيع ان تلائم ثور المسك لاحوال المعيشة هناك فيسهل تكثيره فيها . ولحم ثور المسك لحم جيد ، لا يفوقه لحم البقر ، وصوفهُ ناعم كالكشمير ولا يتقلص عند الغسل . ومع ذلك فالانسان هذا العصر لا يفكر ، الاّ في الصعوبات التي تقوم في وجهه من هذه الناحية . فيقول ان ثور المسك لم يؤنس . وهو على كونهِ حيواناً بريّاً ليس على الاطلاق حيواناً شديد الشراسة

اما تجريب التجارب بتبر المعادن والمركبات الكيمائية ، مع ان التجربة بحيوان ثور المسك ، تنطوي على لذة وفائدة اقطاب التجارب الكيمائية على الاقل

وما قولك في بعض المراعي الافريقية . ففي هذه المراعي حيوان برّي يعرف بالايلند . تأنيسه سهل وطعم لحمه لذيذ . ولكن الناس لم يروا فيهِ الاّ حيواناً للصيد . فأبادوه او كادوا من منطقة واسعة مساحتها تبلغ مئات الالوف من الافدنة . ثم جاؤوا بالابقار والثيران لتعيش هناك فباءت تجربتهم بالخيبة والخسارة . لأن هذه الحيوانات لم تستطع التبوت في وجوه ذباب تسه تسه

واذا صحّ ما توقعه منا سلفنا العظيم ، واستعملنا بعض الحيوانات لادارة بعض الآلات ، وجب علينا ان نستنبط وسيلة للتفاهم معها . وهذا امر ميسور اذا عرفنا كيف نعالجهُ . فبدلاً من ان نحاول تعليم الحيوانات النطق يجب علينا — ونحن بارعون في أصول اللغات واساليبها — ان نفهم لغاتها هي ، فنحتكم فيها ونفهمها ما نريد

هذه لمحة خاطفة عن نواحي هذا الموضوع الفتّان نسوقها للتفكهة والاعتبار في آنٍ واحد